حياة هكسلي واشغالهُ

من خطبة للورد اقبري (السر جون لبوك) تلاها في مجمع علم الانسان (الانثربولوجيا) ببلاد الانكليز

(تابع ما قبلهُ)

ومما يستحق الالتفات في حياة هكسلي اهتمامهُ بالمباحث التي وراء الطبيعة فلما أُنشئت جمعية ما وراء الطبيعة سنة ١٨٦٩ ارتاب اعضاؤها في هل يدعون هكسلي وتندل للانضمام اليها وارسلوا المستر نولس (محرر مجلة القرن التاسع عشر) اليَّ يستشيرونني في الامر فقلت اني احسب اقصاءهما عنا بسبب آرائهما مبطلاً لحرية البحث ويتعذَّر علينا ان نفع حدًّا فاصلاً بين الآراء التي تجيز لاصحابها الانتظام في سلكنا والآراء التي تمنع اصحابها من هذا الانتظام مع ان كل انسان حرٌّ في رأيهِ وجمعيتنا لم تقيد آراء الناس . وهكسلي وتندل مخالفان في الرأي للبعض منا ولكن لا يمكن ان يعبّا عن رأيها تعبيرًا يغيظ احدًا

وكان في هذه الجمعية نحو اربعين عضوًا وبينهم طمسن ورئيس اساقفة يورك واسقف غلوستر ودين ستنلي ودين الفرد من زعماء الكنيسة الانكليزية . والكردينال متنغ والاب دالجرنس والمستر ورد من زعماء الكنيسة الرومانية . وغلادستون ودوق ارجيل ولورد شربروك والسر غرانت دف والمستر مورلي من رجال السياسة . ومرتينو وتنيسن وبرونتغ وفردرك هريسن ولسلي ستفنس وغيرهم من رجال الانشاء فلا عجب اذا توقعتُ اعظم الفوائد من هذه الجمعية . وقد حدث فيها ما ادهشني فاننا حرنا اولاً في من نجعلهُ اول رئيس علينا لاختلاف مذاهبنا دينًا وفلسفةً واخيرًا قرَّ القرار على جعلي الرئيس الاول فاذهاني ذلك جدًّا لانني لم اكن انتظرهُ . وكانت حرية البحث مطلقة تمام الاطلاق ولكننا كنا نبحث بالصداقة والمحبة . وكان هكسلي من اقدرنا على البحث والجدال

كنا نتغدَّى معًا ثم يقرأُ واحد من الاعضاء مقالةً في موضوع ما ويدور البحث فيها واخيرًا يقف صاحب المقالة ويلخص البحث و يرد على ما اعتُرض بهِ عليهِ . وقدَّم هكسلي مقالات كثيرة لهذه الجمعية وكنا نسرُّ بمناظراتهِ فيها لانهُ كان فائقًا في شدَّة العارضة وقوة الحجَّة

(وهنا فصَّل الخطيب كيف فنَّد هكسلي فلسفة ده كارت التي يزعم فيها ان الحيوانات آلات ميكانيكية لا غير) وكان من نتائج هذه الجمعية وضع هكسلي لكلمة الاغنستك اي اللاادري . قال " لما باحثُ اشدي وجعلتُ اسأل نفسي أموحِّد انا ام مشرك أمادي ام روحي امعتنق للدين المسيحي ام غير معتنق لدين من الاديان وجدت انهُ كلما زاد علمي وبحثي اعتاص عليَّ ان اجيب عما تقدَّم

واخيرًا وجدتُ اني لستُ موحِّدًا ولا مشركًا ولا ماديًّا ولا روحيًّا ولا مقيدًا بمذهب من المذاهب الدينية لان الشيء الوحيد الذي يتفق فيهِ الصلاَّح من اهل هذه المذاهب هو الشيء الذي اخالفهم فيهِ فانهم يثقون انهم يعرفون بعض الاشياء معرفة اكيدة و يعرفون غاية الوجود. وانا اعلم من نفسي اني لا اعرف هذه الاشياء التي يدعون معرفتها معرفة اكيدة ولا اعرف غاية الوجود. وكان كل واحد تقريبًا من اعضاء جمعيتنا ينتسب الى مذهب من المذاهب الاَّ انا فلم تكن لي نسبة فشعرت شعور الثعلب الذي قُطع ذنبهُ وجاء اخواتهِ الثعالب وهنَّ يجررن ذيولهنَّ عجبًا وتيهًا وهو ابتر بينهنَّ ولذلك اعملت فكري واخترعت اللاادرية (اغنستك) لكي انتسب الى مذهب مثل غيري معارضًا بهِ مذهب الغنستك الذين كانوا يدَّعون انهم يعرفون كثيرًا عن كل شيء مما اجهلهُ انا. واستغنمت اول فرصة وحلَّيت اسمي بهذا اللقب لكي يظهر ان لي ذيلاً مثل غيري من الثعالب "

واكد هكسلي انهُ ليس من معتقدي القدر ولا من الماديين ولا من المعطلين. قال "لستُ من معتقدي القدر لان القدر او الاضطرار صيغة منطقية لا اساس لها في العالم المادي. ولا انا من الماديين لانني لا اقدر ان أتصوَّر وجود المادة من غير وجود عقل يكيف صورة وجودها ولا من المعطلين لان مسألة العلة الاولى من المسائل التي لا تدركها عقولنا القاصرة على ما أرى "

وكثيرًا ما يقول علماء الكلام (اللاهوتيون) قولاً مفادهُ ان الانسان يستطيع ان يؤمن بصحة ما لا يفهمهُ كأن الايمان امرٌ خاضع للارادة وكأن من يؤمن بما لا يقدر ان يقيم الادلة على صحتهِ يحسب ايمانهُ بهِ فضيلة لهُ. وانهُ اذا ذُكر لك امر فلا بدَّ من ان تصدقهُ او تكذبهُ ولا وسط بينهما. اما هكسلي فقال كما يقول اكثر رجال العلم انهُ لا يستطيع ان يعتقد صحة شيء ما لم يرَ دليلاً واضحًا على صحتهِ. نعم ان المرء قد يسلم بصحة شيء من غير ان يعلم كيفيتهُ ولكن يستحيل عليهِ ان يعتقد بصحة ما لا يفهمهُ ولذلك يبقى في حالة متوسطة بين الاعتقاد والانكار

والايمان يعتمد على العمل اكثر مما يعتمد على القول فاذا كان الانسان لا يفعل حسبما يؤمن فهو غير مؤمن. ومثال الايمان المقترن بالعمل ان اهالي فيجي يؤمنون بالبعث (القيامة) و يقولون ان الانسان يُبعث كما مات فاذا مات شابًّا بُعث شابًّا واذا مات شيخًا بعث شيخًا واذا مات هرمًا بعث هرمًا واذا مات قويًّا بعث قويًّا واذا مات اطرش بعث اطرش و يفعلون حسبما يؤمنون فيجعل كل واحد منهم اقاربهُ يقتلونهُ وهو في عنفوان قوتهِ حتى لا يموت ضعيفًا فيبعث ضعيفًا. وقد

قال الدكتور ولكس انهُ لم يرَ في مدتهم الكبيرة احدًا عمرهُ اكثر من اربعين سنة . هذا هو ايمان راسخ في النفس وايقان ثابت بالمعاد

ويظهر معتقد هكسلي من ثلاثة ابيات كتبتها زوجتهُ على رسمٍ وهي

Be not afraid, ye wailing hearts, that weep,
For still He giveth His beloved sleep,
And if an endless sleep He wills—so best.

ومعنى هذه الابيات " لا تخافي ايتها القلوب الباكية المتحبة لانهُ (اي الله) يعطي حبيبهُ نومًا واذا اراد ان يكون هذا النوم ابديًا فذلك هو الاحسن "

وهذا اعتراف صريح بوجود الخالق اما المعاد فالذي ينكرهُ هو الذي يعيش عيشة مدلولها ان ليس وراء هذه الحياة حياة اخرى او كما قال بكستر في كتابهِ " راحة القديسين " هو من يدَّعي انهُ مؤمن بالسماء وينعل كأنهُ يفضل راحة السماء على نار جهنم ولكنهُ لا يفضلها على الملاذ الارضية

ثم ان هكسلي لم يكن من غير ايمان بحدود فقد قال اني لستُ من الذين يقولون ان كل الاشياء تفعل معًا للخير (أُبتمنت) ولكني واثق ان الحكم الالهيَّ عادل تمام العدل . وكلما زدت اختبارًا باحوال الناس اتضح لي ان الشرير لا يفلح والصدّيق لا يضام

وقد احسن السر وليم فولر حيث قال " انهُ اذا اريد بالتديُّن التسليم بالتعاليم والرسوم التي في مذهب من المذاهب الدينية فهكسلي لم يكن متدينًا ولكن ما من احد عاشرهُ الاَّ ورأى انهُ يحترم اشد الاحترام كل ما هو حق كل ما هو جليل كل ما هو عادل كل ما هو طاهر كل ما هو مسرّ كل ما صيتهُ حسن ويكره اشد الكره كل ما يناقض ذلك . وقال اللورد شفسبري ان هكسلي حدَّد الفضيلة فقال " علموا الولد الحكمة فذلك هو الفضيلة "

والخلاف الحقيقي ليس بين العلم والدين بل بين العلم والخرافات . فعدم الاعتقاد برحمة الله هو الذي قاد الى انشاء ديوان التفتيش وفعل الفظائع المنسوبة اليهِ . وقد بقي الاعتقاد بالسحر باسطًا ستار الظلم فوق الديانة المسيحية مدة القرون الوسطى وما بعدها الى عصرنا هذا تقريبًا واعتقدهُ اناس من الصلاَّح مثل ولسلي . والعلم هو الذي ازاح هذا الستار فالبلاد التي لا يزال العلم فيها متأخرًا الدينُ فيها غامضٌ والبلاد التي تقدَّم العلم فيها تقدَّم الدين ايضًا وانفصل بينهُ وبين الخرافات . ولكن لم يُعترف بخدمة العلم الاعتراف الواجب حتى الآن

وقد يظن كثيرون منا ان هكسلي تطرف في ارتيابهِ فان بعض ما ارتاب في صحتهِ عليهِ ادلة كثيرة تؤيدهُ اكثر مما ظن . اما انا فاقول انهُ لم يستخف بشيء من هذه الامور بل بحث عنها

بهمَّة واخلاص راغبًا في الوصول الى حقيقتها . ويسرُّني ان اقول ان الجميع اعترفوا لهُ بذلك . ولم يكن معاديًا للدين ولو خالف خدَمتهُ في امور جوهرية لان اهل العلم يختلفون في امور كثيرة وهم يفتشون عن الحقائق ولكن لا يقال عن احد منهم انهُ معادٍ للعلم

الاَّ ان كثيرين من رجال الدين يعدُّون من يخالفهم في معتقدهم معاديًا لدينهم ومن يشك فيهِ كافرًا او معطِّلاً . ولذلك رأيناهم بالغوا في كرم الاخلاق لما ابَّنوا هكسلي وذكروهُ بالاكرام ولو حسبوهُ خصمًا عنيدًا

قالت جريدة العالم المسيحي عند وفاتهِ "لو كان الرأي الشائع في الكنيسة لما كان هكسلي شابًّا من حيث نشوء التوراة كما هو الآن لما رأينا الكنائس تنذهل من رأي دارون ونقاومهُ ولكان اعظم تلامذة دارون تمتَّع منذ ثلاثين سنة بما تمتع بهِ قبيل وفاتهِ من الاكرام والثقة والحب". ولما قام رئيس الجمعية الملكية السابق والحاضر وابَّنا هكسلي التفت كلٌّ منهما الى معتقدهِ الديني فقال الاول وهو لورد كلفن " اذا اريد بالتدين بذل الجهد في عمل الصلاح فمن يستحق لقب التدين اكثر من هكسلي" . ولما اراد الثاني وهو لورد لستر ان يصف استقامة هكسلي العقلية اشار الى انهُ كان " صدِّيقًا قلبهُ مملوء بالحنو والشفقة وديانتهُ فعل الصلاح "

وقد كان هكسلي رجلاً عظيماً وكان ايضًا صالحًا شجاعًا . ولم يستطع المجاهرة بآرائهِ الاَّ لانهُ كان شجاعًا ولو راعى مصلحتهُ الذاتية ما فعل ذلك ونحن مديونون لهُ بما نتمتع بهِ الآن من حرية القول

وكان يشتد حنقهُ اذا رأى احدًا اساء الى غيرهِ او رأى احدًا خدع غيرهُ او رأى احدًا يمتهن الحق . والتمثال الذي نُصب لهُ في متحف التاريخ الطبيعي يمثلهُ وهو في حالة الحنق . — الحنق العادل الفاضل ولكنهُ لم يكن كذلك غالبًا ولا كان كذلك وهو يدرِّس ولا وهو بين اصدقائهِ فانهُ كان من اودع الناس واظرفهم وارقهم قلبًا

وقد كان غرضهُ من اشغالهِ كلها على ما قالهُ ان تزيد المعارف الطبيعية وان تستعمل الاساليب العلمية في البحث عن المسائل العمومية . وكان في معيشتهِ البيتية مثالاً للحب والدعة فكان متعلقًا باولادهِ وكانوا متعلقين بهِ وقد قال في ذلك ان محبة اولادنا تنعش نفوسنا في شيخوختنا اكثر مما تنعشنا حرارة الشمس

ولا اريد ان اختم هذه الكلمات ما لم اشر الى زوجتهِ مسز هكسلي التي قال عنها ابنها انها كانت "عونهُ وعضدهُ اربعين سنة تساعدهُ بمشورتها وقت الجهاد وبانسها وقت الشدَّة . وهي المنتقد الذي كان لانتقادهِ المقام الاعلى في عينيهِ ولمدحهِ المنزلة الاسمى في نفسهِ وكان اهتمامهُ

الاول موجهاً اليها وفكره الاخير محصوراً فيها وهي الشخص المتجرد بنفسه اتحاداً يتخذ قدوة الاخلاص والحب المتبادلين"

وكان لهُ غايتان يسعى اليهما الاولى نشر العلم والثانية اصلاح حال العامة لكي يرتقوا من الحالة التعيسة التي يُرى اكثرهم فيها. قال وليس لي رغبة شديدة في الشهرة بعد الموت ولكن اذا كان لا بدَّ من ذكري بشيء بعد موتي فاريد ان أُذكر كرجل بذل جهده لمساعدة الناس

وقد اجتمعنا هنا الآن اكراماً لذكر هذا الرجل لا لمجرَّد حبنا لهُ ولا لمجرَّد اعترافنا بانهُ كان عالماً كبيراً بل ايضاً لانهُ كان قدوة لنا كلنا كرجل بذل كل ما في وسعهِ لنفع غيرهِ.

آثار كريت

لم تكد جزيرة كريت تفيق من داء الثورة وفساد الاحكام حتى اقبل العلماء الاوربيون اليها ينقبون عن عاديَّاتها وفي جملتهم المستر ارثر افانس بن السرجون افانس. وقد بعث الينا بخلاصة تنقيبهِ في العام الماضي فاذا هو قد وجد من الآثار ما تجلي بهِ امور كثيرة من غوامض التاريخ وكان من حظهِ ان وقع على آثار قصر عظيم حفظت من انياب الدهر وتخريب الناس على اسلوب عجيب مدة تنيف على ثلاثة آلاف عام. وكانت هذا الآثار قريبة من وجه الارض تغطيها طبقة رقيقة من التراب فحالما نزع التراب عنها ظهرت تحتهُ دور فسيحة ومرادب طويلة وغرف واسعة ومخازن مملوءة بالجرار والخوابي وبينها الغرفة التي كان فيها عرش الملك والغرفة كان يجتمع فيها ديوان مشورتهِ. والعرش من المرمر الشفاف (الالبستر) ولعلهُ نفس العرش الذي جلس عليهِ مينوس[1] ونطق بشرائعهِ وعليهِ نقوش كثيرة من المقنطرات المحددة. وعلى جدران هذه الغرفة وفي ارضها وارض الاروقة المتصلة بها صور كثيرة تزري بالصور اليونانية التي وجدت في مسيني. ووجد هناك صورة شاب يوناني ومنهُ يظهر شكل اول شعب مرتقٍ سكن اوربا واوجد عمرانها وصور اخرى كثيرة وبينها صور نساء يتحدثن وجدت في دور القصر وفي اروقتهِ. وينبوعاً ميزابهُ من المرمر في شكل لبوة عيناها من الميناء وكأسنانها من الالبستر في شكل بوق من ابواق البحر وسراجاً من حجر البرفير قائماً على مسرجة في

(١) هو ملك كريت الذي يقال في خرافات اليونان انهُ استلم الشريعة من الهيم زفس (اي المشتري). ويقال فيها ايضاً انهُ وجد ملكان بهذا الاسم الاول ابن زفس واوربا والثاني حفيد الاول وهو الذي استلم الشريعة من زفس. فهذا القصر هو قصر كنوسس الذي كان مينوس ساكناً فيهِ